صور من الحياة

قسوة !

للأستاذ كامل محمود حبيب

طلع إلى الحياة طفلا ضئيلا يعاني الضنى من سغب ، ويشكو الهزال من شظف ، ويقاسي الهم من ضياع ؛ يقيم على الطوى، ويغض بالضنى ، ويشرق بالغيظ . وتعلم من أبيه — أول ماتعلم أن المال هو الغاية العظمى ، وأنه هو الهدف الأسمى . ورأى أباه ، وهو رجل رقيق فظ الطبع غليظ القلب شحيح النفس ، ينهره في جفوة إن طوعت له نفسه أن يسأله قرشاً ، ويرده في غيظ إن طلب إليه حاجة . ثم شب بأبيه وهو يقذفه إلى المدرسة هناك في المدينة ثم ينطوي عنه كأنما نسي أن له في المدينة ابناً ينظر حواليه في حيرة وقلق فيرى أبناء الناس يعيشون في دنيا غير دنياه ، ويرفلون في طفولة غير طفولته ، ويتنعمون بعيش غير عيشه ، فانضم على شجن أنهمر في قلبه الغض وهو مايزال لدى الأفق الشرقي من الحياة ؛ انضم على شجن عارم ثوار لأنه لايجد القرش ؛ وهو نعيم الحياة ولين العيش ونور العين وبهجة القلب وسرور النفس . وأحس في حاجته إلى المال خسة أورثته الاستخذاء ، وضعة ملأته الذل ، وصغاراً وسمه بالهوان ، فأخذ حب المال يتدفق في قلبه جارفاً يصرفه عن انسانيته ورجولته وكرامته جميعاً ، والسنون تنطوي، حتى تخرج من مدرسة التجارة المتوسطة ، ويعين موظفاً ببنك مصر .

وظن رفاقه أن راتبه كفيل بأن يهيء له حياة كريمة طيبة تخلع عنه ثيابا رثة زرية ، وتنفض عنه عفر الحاجة وغبار المسكنة وتفسح ماتشتت من حاجاته ومن خواطره ، ولكن الأيام راحت تنطوي في غير ريث ولامهل ، وهو في زيه القديم البالي لم يبد عليه أثر النعمة ولاسمات الخفض لأنه لايهدف إلى غاية سوى أن يجمع المال ويكدسه ويحرص عليه فلا ينفقه ولايبدده . وتقزز زملاؤه في البنك من هذا المظهر الوضيع ومن اللباس القذر ومن الوجه الأغبر ومن الشعر المشعث ، وأنفوا أن يندس في زمرتهم في نشاطه الكزازة من الكرامة ويصرفه الشح عن الترفع فأجمعوا أمرهم على أن ينشروا الخبر على صبي المدير ؛ وثار المدير لما سمع فما لبث أن جذبه من البنك ليقذف به في مخزن الحبوب ليتوارى هناك خلف سحابة كثيفة من الغبار الكاثر ، وليتيه في ضجة العمل الصاخب بين الحال والعامل . وانطلق الفتى إلى عمله الجديد هادئاً لايستشعر الحيف ولايحس الجور .

* * *

وجاءه أبوه — ذات مرة — يحدثه حديث الزواج ، فدفعه عنه في رفق ودعه في هوادة ، وهو يقول « دع عنك ، يا أبي ، هذا الحديث . فإن تكاليف العروس وحاجات الزوجة ورغبات الولد أشياء تبهظ الفتى وتثقل كاهل الثرى ، فما بال وأنا — كما تعلم — موظف صغير أحس الارهاق والضيق وأشعر براتبي يتوه بأعباء وأنا عزب ... » فقال الأب في هدوء « لا بأس عليك إن تعلقت بالضيق أو تذرعت بالحاجة ولكن الزوجة للفتاة فتاة من ذوي قرابتك ، ربيبة النشأ والربى ، تقنع بالقليل وترضى بالكفاف ، لم يبهرها زخرف الحياة ولاخطفها ألق الحضارة . ثم هي يتيمة ، مات أبوها منذ سنة واحدة فورثت عنه كفافا وكفافا من الأقدمة ... » فهمس الفتى كأنما يتحدث إلى نفسه وقد بدا في نبرات صوته أن أسهل وانقاد « إنها ثروة... ثروة طائلة ، تكفل لي حياة ناعمة » وأجاب الأب « إنك لولاريب ستجد إلى جانبها راحة القلب وهدوء النفس ورغد العيش . فقال الفتى « ولكني أعجز من أن أدفع المهر » فقال له أبوه « أما المهر فسأعل عنك بمنه لتكون ديناً عليك تسدده بعد سنة من زواجك ، أي بعد سنة من استيلائك على ثروة الزوجة المنتظرة » وانفرجت أسارير الفتى وتبسط في الحديث ، وأقبل على أبيه يسأله « أو أستطيع أن أنزع ثروة زوجي من بين يدي أخيها الأكبر ؟ » فأجابه الأب في ثقة واطمئنان « ومن ذا عساه يمنعك من أن تقوم على شأن زوجك ؟ »

وفي ضحى اليوم التالي انطلق الفتى وأبوه معاً إلى القرية ... إلى دار العروس . وتحدثا إلى أخيها الأكبر ، وهو — إذ ذاك — الوصي على مالها ، فما تعسر عليهما ولامتنع ، فالبنت الفتاة أن سمحت على الفتى ، وخرج الفتى من دار الفتاة وهو يتوثب فرحا وسروراً ويخال بهجة وأملا .

ورأى الوصي الفتى يسر إلى أبيه بأمر فأحس بما يحس به الثرى يخفق جيبه بالمال حين يسمع همسات الغيث تطوف

حواليه فتفزعه من الأمان والقرار . ولكنه رجل ذو حيلة وخداع وذو مكر ودهاء ، فأمر في نفسه أمراً .

وراح الوصي بعد الجهاز ، ينفق عن سعة ويبذل في سخاء ، يستفرغ الجهد ويستنفد الوسع ، والفتى يرى ويبسم لأنه يستشف آثار البذخ والإسراف فيخيل إليه أن الرجل يكلف نفسه فوق طاقتها ليرضي هو ولترضي الزوجة ، فاطمأنت نفسه وسكنت نوازعه ، ثم انطلق يهيء لنفسه حاجاتها ويعد للعرس طاباته ، يفرق في الانفاق ويفرط في العطاء حتى كاد أن ينفد وفره ، وفي رأيه أنه يوشك أن يعوض ما فقد وأن يسترد ما أنفق .

وانطوى شهر العسل ، والفتى يمرح في بحبوحة من النعيم فيها الصفاء والدعة ، ويرشف رضاب حياة سعيدة طيبة فيها الهدوء والطمأنينة . انطوى شهر العسل ، ثم أفاق الفتى فإذا يده صفر إلا من رأيه ، وإذ مال زوجته بين يدي أخيها الأكبر ليتزل له عن شبر واحد . وأحس الفتى بالألم يمزق قلبه وخزات عنيفة قاسية لأنه أضاع ما ادخر في سنوات ، ولكن صيابة من الأمل كانت تعاوده — بين الفينة والفينة — فيطمئن لها قلبه وتسكن ثائرته

وحين أحس الفتى الضيق والعنت ، انطلق إلى شقيق زوجته يطلب إليه أن ينزل له عن مال زوجته . غير أن الرجل ربت على كتف الفتى في هدوء وهو يقول « إنك فتى صغير السن ، لا تستطيع أن تتصرف على أطيان زوجك » وأحس الفتى أن الرجل يسخر من طفلته في غير رفق ويهزأ من طويته في غير لين ، فهم بردان يثور في وجهه ولكن الرجل عاجله بقوله « أتذكر ، يا أخي ، أن جهاز العروس قد كلفها نيفاً وألف جنيه ، وهذا دين على زوجتك أتنظر وفاءه ؟ فأطيانها بين يدي رهينة حتى تفي أنت بدينها أو تفي هي ... » وهبطت كلمات الرجل على قلب الفتى صفعات شديدة نهه من قوته ونعسف بكيانها ، ولكن لم يستطع أن يفعل شيئاً ، فانفلت من لدن الرجل وقد ارتاع واستطار لبه .

وبدا للفتى أنه خسر في شهر واحد كد سنوات طواها يستعزي ضنك العيش ويستعذب جدب الحياة ويتلذذ بالحرمان ، ليكون بعد سنوات — رجلا فيه الثراء والفتى — بداله أنه أضاع ماله فاستشاط غيظاً واحتدمت الثورة في قلبه ، ولكن .

وانطوت الأيام فإذا الفتى قد انتكس إلى حاله الأولى ، يستعزي ضنك العيش ويستعذب جدب الحياة ويتلذذ بالحرمان ثم راح يضرب زوجته بالجوع والعري في خشونة وعنف ، لا تأخذه شفقة ولا ينبض قلبه برحمة . والفتاة صابرة لا تتحدث بما تعاني ترفعاً منها وكبرياء ، ولا تشكو قسوة الزوج أنفة منها تعزاً . وامتصت — حيناً — على هم يضطرم في قلبها عسى أن تجد الرقة في زوجها أو تحس الرأفة في أخيها ، والأيام مر .

وضاقت نفس الزوجة بما تقاسي ونفد صبرها ، فانطلقت إلى أخيها تبثه شكواها وتسر إليها بكربة نفسها ، فما ألقى إليها السمع إلا ريثما يقول لها في فتور « وماذا أعجبك من هذا الفتى الوضيع القذر ؟ لو شئت وجدت عندي الرحب والسعة »

وخرجت الفتاة من لدن أخيها الأكبر وقد حطمها الأسى وأرمضها الندم ، لأنها فقدت العطف في قلب زوجها ، وفقدت الحنان في قلب أخيها .

وخشيت أن يجرفها تيار الحاجة إلى الهاوية فآثرت أن تستقر في دار أخيها علها تدرأ هنالك غائلة السقوط والانهيار وهي تشعر بالشيطان يوسوس لها بأمر ؛ وعلها تسترد ما انطبعت عليها من أنفة وإباء . فهل وجدت في دار أخيها غناء عن الزوج والابن ، وهما روح الحياة وبهجة العمر وسيادة القلب ؟

ياعجبا للنفس الإنسانية حين يطغى عليها حب الذات ، ويعميها ثراء المال ، فتنزل عن الشرف والكرامة والإنسانية جميعاً .

كامل محمود حبيب

أعلان

تعلن وزارة العدل عن فقد الرصيد رقم ٣٠ ورايته قبل استعماله من دفتر الزواج رقم ٢٦٢٣٨٢ عملية الشيخ عبد العزيز سالم مأذون كفر الشحوت التابعة لمحكمة بنها الشرعية .

فكل من يعرض عليه هذا الرصيد أو إحدى رايته أو عثر عليها بأي الطرق أن يعلم إن لا قيمة لها وأن استعمالها بعد تزويرا يعرض مستعمله للمحاكمة الجنائية .

٣٧١٤